فصل

إذا عرفت هذا العز والشرف والكمال والجمال والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهر عزيز قد وهب لك وبعد ذلك خفى عنك، فإن لم تطلبه وغفلت عنه وضيعته كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة؛ فاجتهد فى طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها! وكل شرف لم يظهر فى الدنيا فهو فى الآخرة فرح بلا غمّ، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان؛ وأما اليوم فليس شيء أعجز منه لأنه مسكين ناقص؛ وإنما الشرف غدًا إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه حتى يخلص منه شبه البهائم، ويبلغ درجة الملائكة، فإن رجع إلى شهوات الدنيا فضلت عليه البهائم يوم القيامة لأنها تصير إلى التراب، ويبقى هو فى العذاب. نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

القواعد العشر

الحمد لله الموفق، الذى وفق قلوب الأحباب لموافقة مراسيم السنة وأحكام الكتاب، الفتاح الذى فتح بصائر أبصارهم فأبصروا مواقع نبال الارتياب فى مقاتل أهل الحجاب، الملهم الذى ألهمهم الحجة البيضاء بالمحجة الخضراء فأصابوا أبكار الصواب، ناداهم بلسان شأن المحبة من جنان المودة كيف ينام المحب عن مشاهدة الأحباب! فأكحلوا نواظرهم بإثمد السهاد، وجفوا من مضاجعهم أطيب الرقاد، وجدُّوا فى أثر الإطلاب مع الطلاب، وجعلوا نهارهم ليلاً، وأفراحهم ويلاً، وأرخوا لعز مولاهم ذيلاً، وتذللوا على الأعتاب، فأقامهم فى الحاضرة والبادية، وأسمعهم أوامرهم ونواهيه، فيا سعادتهم بتوفيقهم لوقوفهم على الأبواب!

وكشف لهم الحجاب عن جماله، وكشط الضباب عن محاسن أثواب مقاله، فردُّوا حيارى بمحاسن الأتراب. أجروا مدامعهم جريان الأنهار، وأبدوا فجائعهم عن زمن تولى من جر الإزار على الأوزار، وطرقوا الباب فأتاهم الجواب يا عبادى أنا التواب على من أقلع عن الحَوْبة وإلىّ أناب.

روّق لهم فى دار الوصال شراب الاتصال، فناهيك به من شراب! فتلذذوا بمناجاته، وغابوا عن حضورهم فى حضراته، وعدا كل بعقله المصاب. فأين المهاجر فى الهواجر، ومن أكحل المحاجر بالخناجر. طوباه قد فاز بطيب الخطاب!

قَدْ كَشَفَ المَوْلَى مَنيعَ الحِجَابِ
وَأَسْمَعَ الأَحْبَابَ طيبَ الخطاب
وَأَحْضَرُوا حَضْرةَ أنس بها
غَابُوا فعَاشُوا بعد موتِ العقابِ
وفي مَقَام القُربِ أَدْنَاهم
لما سقَاهم في المقامِ الشَّرابِ
وأتحفُوا مِنْ فَضْله بالوفَا
محَضًا مِنَ الأَمْنِ أجل الكتابِ
هُمُ الملوكُ الشُّمُّ مِنْ خَلْقه
ضنائن الحقِّ لعزِّ الحجابِ
قَدْ تَبِعُوا نهجَ سَبيلِ الهدى
واتَّبَعُوا حُكْمَ نُصُوصِ الكتابِ
وَاسْتَمْسكُوا بسنَّة خير الورى
وحاسبوا من قَبيلِ يومِ الحسابِ
وَنَاقَشُوا أنفسهم خيفة
من غضبِ الحقِّ وهولِ العقاب
إِذَا أَتَى اللَّيلُ تراهم به
فَرْحَى لجمعِ الفرق تَحْتَ النِّقاب
يُحْيُونَهُ بالذِّكرِ كَيْ يُحْيِهم
بِذِكْرِه في جمع أهل الثَّواب
يَراهُم الحقُّ يُبَاهي بهم
بهِمْ عَنَ الخَلْقِ يَزُولُ العذاب
عَلَيْهِم مِنِّي سَلَامٌ سَمَا
مَا لَمَعَ البرقُ أَوْ أَهَلَّ السَّحاب

أحمده حمدًا أستوجب به الثواب، وأشكره شكرًا تزيد به زيادات أولي الألباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنزيه عن الحلول والانحياز، والظهور، والبطون، والابتداء والانتهاء، والاشتهار والاحتجاب؛ وتقدست ذاته المقدسة عن مقالات أولي الجهالات من الكم والكيف والأين والمكان والزمان والإياب والذهاب، وأمجده بما أبرزه بحكمته من الأكوان عن التفكر والتدبر والمعاونة والمشاورة والراحة والنصب والانتصاب، وأعظمه عن التشبيه والتمثيل والتعديل والتحويل والتبديل والتركيب والارتكاب. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أشرف محبوب، وأعظم الأشراف،

وأخص الأحباب؛ أرسله بفضل الكتاب وفصل الخطاب، وأيده بأفضل كتاب وأجمل خطاب؛ أفصح الأعراب بالإعراب والاختصار والإسهاب، وأعجز بلغاء الأحزاب ببدائع النفى والإيجاب، فأنقذ الأحباب من مهاوى الارتياب ومغاوى الأعراب، بالعقاب على الأعقاب، وكشف عن وجه نور الإسلام مكفرات ظلمات الإشراك والضباب؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والأحباب، وعلى الخلفاء الراشدين الأقطاب: أبى بكر وأبى حفص وأبى عمرو وأبىْ تراب، صلاة تحلنا دار النعيم وتخرجنا عن دار العذاب.

أما بعد: نفحنا الله وإياك بنسائم قربه، وسقانا وإياك من كاسات حبه؛ فإن بيان كيفية طريقنا، وبرهان أهل تحقيقنا، مبنى على عشرة قواعد توقظ النائم وتقيم القاعد:

القاعدة الأولى

النية الصادقة الواقعة من غير التواء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**».

والمراد بالنية عزم القلب، وبالصادقة إنهاؤها للفعل والترك للرب، وبالواقعة استمرارها على هذه الخلة الأثيرة؛ لأن التكرار تأثيرًا ليس لغيره، وعلامتها عدم تغيير جزمه بأعراض فانية وباقية فى عزمه، فإن العمل للحق ولا بد من الحق فلا يترك ما عزم عليه للخلق.

القاعدة الثانية

العمل لله من غير شريك ولا اشتراك لقوله عليه السلام: «**اعْبُد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» وعلامته أن لا يرضى بغير الحق، ويرى ما سواه قاطعًا، فيجتنب الخلق لقول النبى المختار: «**تعس عبد الدينار**».

وليترك الله سبحانه وتعالى جميع أمانيه، لقوله عليه السلام: «**منْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيه**» وآكدها الشبهات فاحذرها أن تصيبك، لقوله عليه السلام: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى مَا لا يُرِيبُكَ**».

فإذا صحت هذه الأصول الثلاثة أثمرت أغصانها لك القربى، فتكون بالصورة فى الدنيا وبالمعنى فى العقبى، وعلى قدر همك وثباتك على الفعل والترك تحظى من الحديث المشهور: «**كُنْ فى الدنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابرَ سَبيل وَعُدَّ نَفْسَكَ منْ أَصْحَاب القُبُور**».

وعلامة القناعة الاكتفاء بما يذهب الحر والبرد والمسغبة لقوله ﷺ: «**حَسْبُ ابن آدمَ لُقَيْمَات يُقمْنَ بها صُلْبَهُ**» فلا يميل إلى صاحب القمح صاحب الشعير، وإلى النقرة صاحب النقير. والمستغنى بالحلال لايقصد المباح، ولا يخفض إلى الشبهة الجناح. وعلامة الغريب

الحمل الخفيف، وعدم الائتلاف بالثقيل، وترك السؤال فإنه يؤوى إلى ظل الدخيل. وعلامة عابر السبيل إسراع الإجابة، ورضاه بما سبق إليه واستطابه. وعلامة الميت إيثار مهمات دينه والمسألة فى غوالب حينه.

القاعدة الثالثة

موافقة الحق بالاتفاق والوفاق ومخالفة النفس بالصبر على الفراق والمشاق، وترك الهوى، وجفاء الملاذ والمكان والخلاف. ومن تعوده خرج عن الحجاب ودخل فى الانكشاف، فعاد نومه سهرًا، واختلاطه عزلة، وشبعه جوعًا، وعزته ذلة، ومكالمته صمتًا، وكثرته قلة.

القاعدة الرابعة

العمل بالاتباع لا الابتداع، لئلا يكون صاحب هوى، ولا يزهو برأيه زهوًا، فإنه لا يفلح من اتخذ لنفسه فى فعله وليًا بقوله عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا**».

القاعدة الخامسة

الهمة العليا عن تسويف يفسدك؛ فقد جاء : لا تترك عمل يومك للغد؛ لأن بعض الأعمال من بعضها، وإلا فمن رضى بالأدنى حرم الأعلى. والكامل المتبع هو السنى لا المتشيع والمعتزل المبتدع، لقوله عليه السلام: «**يَا أَحبَابِى عَلَيْكُمْ بِالسَّوادِ الأَعْظَمِ**» قالوا: يا رسول الله وما السواد الأعظم؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِى**».

القاعدة السادسة

العجز والذلة؛ لا بمعنى الكسل فى الطاعات وترك الاجتهاد، بل عجزك عن كل فعل إلا بقدرة الحق الجواد، وأن ترى الخلق بعين التوقير والاحترام، فإن بعضهم وسائط بعض، إجلالاً لحضرة ذى الجلال والإكرام؛ لأن سنة الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا ما أضافه إليه بنفى الوسائط، وإن أراد جلال حضرته تعظيمًا أضافه لغيره رعاية للضوابط. فإذا علمت أن الكل بيد الله سبحانه وتعالى والمرجع إليه وتكبرت، فقد تكبرت عليه إلا بأمر وصل إليك من لديه. فاجعل عجزك فى جنبه ومسكنتك له بالاعتذار، ولا تتصور قدرة لك فإنها منازعة فى الاقتدار.

القاعدة السابعة

الخوف والرجاء معنى، وعدم الاطمئنان بجلال الإحسان إلا عند العيان، فحسن ظنك منك بالجواد الحسان.

القاعدة الثامنة

دوام الورد إما فى حق الحق أو حق العباد، فإن من ليس ورد فماله من الموارد إمداد، فالمديم يمل الحل بملاله بخلاف الذى يغيب بأعماله وأقواله، فإن النفس تنبسط بذلك جهراً وسراً، وتراعى حقوق العباد كما يتوقع منهم خيراً وشراً، فيحب ويبغض لهم ما يحب ويبغض لنفسه خيراً وشراً، ويعلم لله تعالى ما يرضى كما يحب أن يفعل الله ما يرضى.

القاعدة التاسعة

المداومة على المراقبة ولا يغيب عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين؛ فمن داوم على مراقبة قلبه لله سبحانه وتعالى ونفى غير الله وجد الله وإحسانه وعلم اليقين يحصل ذلك لك بجملته وهو أن ترى الحركات والسكنات والأعيان بتحريكه وتسكينه وقدرته سبحانه لا يستغنى عنه شئ. ثم تزيد مراقبته إلى أن تترقى إلى علم اليقين، ثم يفنى عن ذلك به، وذلك حقيقة اليقين فيقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله سبحانه وتعالى، هو القيوم على كل شىء بقيوميته، وذلك الشئ هو القائم بأمره وبقدرته على حسب المشاهدة والمحاضرة، فتأدب مع الخلق وعاشر أحسن المعاشرة؛ قال ﷺ: **«أدبنى ربى فأحسن تأديبى»**.

القاعدة العاشرة

علم ما يجب الاشتغال به ظاهراً وباطنًا اجتهاداً؛ لأن من ظن أنه استغنى عن الطاعة فهو مفلس معاداً لقوله سبحانه لا رب إلاسواه: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

فهذا ما بنيت على أعمدة قواعده قصوراً من غير قصور، وأسست عليه شرامخ الحجار لربات الحجور، وحرثته بمحراث فدن، وبذرته بصنوف حبوب السعادة، وغرست فى فرادسه الأذكار، وأجريب فى جناته من الأوراد والأنهار، وفرشته بشقائق نعمان المجاهدة، ومهدته بحدائق حقائق المكابدة؛ راجيًا حصاد زرعى بمناجل الهمم، وقاصداً غنيمة إنفاقى من مواهب الكرم، والله تعالى يزكيه ويربيه، ويرتع فيه من ظهر فيه، ومن التحق به ممن يحييه، إنه الجواد الكريم البر الرحيم.

والسلام على من اتبع الهدى، فما ابتدع ونفع وانتفع ولحق بعباد الله الصالحين وحزبه المفلحين ورحمته وبركاته، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد نور أنوار المعارف وسر أسرار العوارف، وعلى آله وصحبه وتابعى سبيله وحزبه، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتعم البركات آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكشف والتبيين
فى غرور الخلق أجمعين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين! !به ثقتى.

الحمد لله وحده، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد: فهذا كتاب الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين.

اعلم أن الخلق قسمان: حيوان وغير حيوان. والحيوان قسمان: مكلف وغير مكلف؛ فالمكلف من خاطبه والله بالعبادة، وأمره بها، ووعده بالثواب عليها، ونهاه عن المعاصى، وحذره العقوبة؛ وغير المكلف من لم يخاطبه بذلك. ثم المكلف قسمان: مؤمن وكافر. والمؤمن قسمان: طائع وعاص؛ وكل واحد من الطائعين والعاصين ينقسم إلى قسمين: عالم وجاهل.

ثم رأيت الغرور لازمًا لجميع المكلفين والمؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين. وأنا إن شاء الله تعالى أكشف عن غرورهم، وأبين الحجة فيه، وأوضحه غاية الإيضاح، وأبينه غاية البيان، بأوجز ما يكون من العبارة، وأبدع ما يكون من الإشارة؛ فأقول وما توفيقى إلا بالله:

واعلم أن المغرورين من الخلق ما عدا الكافرين أربعة أصناف: صنف من العلماء، وصنف من العباد، وصنف من أرباب الأموال، وصنف من المتصوفة. فأول ما نبدأ به غرور الكفار، وهم فى غرورهم قسمان: منهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور. فأما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، ولا يترك اليقين بالشك؛ وهذا قياس فاسد، وهو قياس إبليس لعنه الله فى قوله أنا خير منه، فظن أن الخيرية فى السبب.

وعلاج هذا الغرور شيئان إما بتصديق وهو الإيمان، وإما ببرهان. أما التصديق فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]. وتصديق الرسول فيما جاء به. وأما البرهان فهو أن يعرف وجه فساد قياسه أن قوله: «الدنيا نقد والآخرة نسيئة» مقدمة صحيحة، وأما قوله: «النقد خير من النسيئة» فهو محل